15me Année No. 717

Lundi — 31 — 8 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧١٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادي الأولى سنة ١٣٦٦ — ٣١ مارس سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

معروف الرصـــافى

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

فى هذا الكتاب دراسة أدبية للشاعر العراقى الكبير وبيئته السياسية والاجتماعية كتبها الأستاذ بدوى أحمد طبانة مدرس اللغة العربية وآدابها فى دار المعلمين العالية ببغداد .

ونحن نرحب بهذا الكتاب وبأمثاله لأكثر من سبب واحد :

لأن تأليف الكتب عن الشعراء المحدثين بعد وفاتهم سنة حسنة لم نأخذ بها كثيراً فى حياتنا الأدبية المصرية .

فقد يشتهر الشاعر ويسير شعره فى الآفاق ويلتف به المعجبون والرواة المتشيعون . ثم تنقضى حياته فتنقضى العناية به وبشعره وتطويه كل سنة تمضى بعده فى حجاب بعد حجاب ، وقصارى ما يبلغه من بقاء الذكر أن يعاد طبع ديوانه إن كانت له ذرية يعنيها طبعه والإبقاء على شهرة صاحبه ، أو كان طبع الديوان لا يكلف طابعيه مغرماً ولا مشقة . فأما الدراسة والتحليل وتخليد السيرة فى الكتب التى تصلح للمطالعة والتداول فذلك عمل نادر فى حياتنا الأدبية المصرية أو معدوم . لأن الذين ظفروا بعد موتهم بالكتابة عنهم لم يكن فضلهم كله مقصوراً على الشعر والعبقرية الشعرية ، وكانت شفاعتهم إلى الذكر مناصب الدولة أو غير ذلك من الشفاعات .

ونرحب بكتاب « معروف الرصافى » مرة أخرى لأنه علامة من علامات التقارب بين الأقطار العربية فى هذه الآونة التى وجب فيها التقارب بين هذه الأقطار وتهيأت له العوامل والأسباب .

وكثيراً ما سمعنا العتب من أدباء العرب فى سورية ولبنان وفلسطين والعراق والحجاز لأن صحف مصر لا تفسح صدورها للتنويه بآثارهم والتعقيب على أعمالهم ، فكنا نقول لهم إن شأن أدباء العرب فى ذلك كشأن الأدباء المصريين أنفسهم بغير خلاف . لأن الصحافة المصرية لا تكتب عن مؤلفات الأدباء المصريين ولا تتبع أعمالهم بالنقد أو الثناء ، ومن المصادفات التى تذكر فى هذا الصدد أن كثيراً من الصحف المصرية يتولاها أناس من أصول لبنانية أو سورية ، فليس فى الأمر تمييز بين أمم العرب بل هو تقصير شامل لكل أمة منها بلا استثناء .

أما إذا رجعنا إلى الشعب المصرى — بمعزل عن الصحافة — فقد يكون إقباله على المؤلفات العربية متى وصلت إليه أكثر من إقباله على المؤلفات المصرية ، لأنه فى هذه الحالة يضيف حب الاستطلاع وحب المجاملة إلى حب التقدير والاستفادة .

فالآن يسرنا أن نرى أديباً مصرياً يتجرد لدراسة شاعر عراقى كبير ويسبق أدباء العراق إلى هذه الدراسة وهى من واجب الأدباء فى الأقطار العربية جمعاء ، وقد أشار الأستاذ الجليل السيد محمد رضا الشبيبى وزير المعارف السابق بالعراق إلى هذا المعنى فى مقدمته للكتاب فقال : « ومما راقنى جداً أن يضطلع بها مؤلف مصرى فيحوز قصب السبق فى هذا المضمار على أدباء العراق » ثم قال : « وقد تصفحت الكتاب فإذا مؤلفه الأستاذ قد ألم بكثير من النواحى التى ينبغى الإلمام بها فى هذا الشأن ، فلم يفته البحث فى بيئة الرصافى ومنشئه وسيرته وفنه وشاعريته إلى غير ذلك .

وقد كون آراءه فى النقد وذكر ما للشاعر وما عليه ، والموازنة بين محاسنه ومساويه فى الشعر والأدب تكويناً لطيفاً يدل على تجرد وإنصاف فى كثير من فصول الكتاب » .

وقد استعان الأديب المؤلف بجميع المؤهلات التى تندبه للكتابة عن شعر الرصافى وأدبه وسيرة حياته . لأنه عاش حيث عاش واطلع على مشاهد شعره وسيرته ، وانطوى له على إعجاب يتيح له أن يفهمه وينصفه وأن يعطف على موضوع دراسته . وربما كان العطف على موضوع الدراسة أول شرط من شروط التأليف فى ذلك الموضوع، فإن الناقد الذى يدرس شاعراً أو كاتباً أو رجلا من رجال التاريخ كائناً ما كان لا يراد منه أن يتعقبه تعقب الغريم أو يدينه إدانة القاضى أو ينظر إليه نظرته إلى غريب لا يعنيه أمره ويستوى عنده إنصافه وظلمه . وإنما يراد منه أن يشعر بشعوره وأن يخلص إلى بواطن نفسه ، ولا سبيل له إلى ذلك بغير عطف وصداقة نفسية تعينه على الفهم الصحيح .

ولكن هذا العطف لم يمنع الأديب المؤلف من نقد الشاعر حيث يجب نقده فى أدبه أو خلقه كما قال الأستاذ الجليل مقدم الكتاب . فمن أمثلة ذلك أنه أنكر عليه التبذل فى الغزل فقال : « وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع والقلب المتفرق غزل مبتذل ووصف مكشوف لا يتورع فيه الرصافى عن ذكر الخفيات وإبداء العورات فى غير تحفظ ولا احتشام ، مما يأباه العقل الحكيم ويمجه الذوق السليم ، وما كان يليق منه ولا يقبل هذا وهو الذى جعل شعره صورة لمجتمعه وقائداً لأمته ، ولا سيما بعد ما عرف إقبال الناس على آثاره وحفظهم لأقواله » .

وللناقد حق فى هذا النقد المتفق عليه . ولا عذر للرصافى فيما يعاب من تبذله إلا أنه وارث من وراث مدرسة العباسيين فى بغداد . وقد أطلعت تلك المدرسة أبا نواس والبحترى كما أطلعت الشريف وابن المعتز . ولا تحسب أن أدباء العصر فى العراق يعدون هاتين المدرستين فى أسلوب النظم ووجهته . فمن جنح إلى مدرسة الشريف وابن المعتز فهناك اللفظ الجزل والنمط الرفيع والغزل العفيف ، ومن جنح إلى مدرسة أبى نواس فقد يجمح جماحه أو يتبعه فى التمرد وخلع الربقة والرقبة فى بعض الأمور . فيقف عند الثورة على القديم ولا يتطوح معه فى الخلاعة والمجون ... ولا بد للمدرسة من الجناح المتطرف كما يقولون فى لغة الحرب والسياسة ، فكان الرصافى ذلك الجناح وعليه جناحه ولا مراء !

* * *

على أن الأستاذ طبانة قد أفلح ولا شك فى إبراز محاسن الشاعر وتشويق القراء إلى استقصاء شعره فى مظانه ؛ فإن الشواهد التى أتى بها فى سياق الترجمة إما حسنات أدبية تروق القارىء لما فيها من الظرف والبلاغة والسجايا المأثورة كقول الرصافى يخاطب وطنه :

يا موطناً لست منه فى موادعة
عش بعد موتى عيش الوادع الهانى.
فكل من فيك تعنينى سعادتهم وكل أبنائك الأعداء إخوانى
إن مر ّ لك الدهر يوماً مر ّ نى، وإذا آذاك بالمزعجات الدهر آذانى

أو قوله فى الهجاء :

سوّد الله منك يا شيخ وجهاً غش حتى باللحية السوداء
لو نتفنا من شعرها وغزلنا لنسجنا خمسين ثوب رياء

أو قوله فى الرد على من يعيبون ظهور الفتاة على مسارح التمثيل:

وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثـــل حالى عزة وإباء
ولكن عاراً أن ترى رجالكم على مسرح التمثيل زى نساء

فإن لم تكن الشواهد من هذا القبيل فهى مراجع تاريخية يهم القارىء أن يتابعها للوقوف على مناسباتها ، وهى على الجملة مناسبات الشرق الحديث فى معرض السياسة والاجتماع .

ولم يبرز الأستاذ طبانة فضائل الرصافى وكفى ؛ بل هو قد أبرز من فضائل أهل العراق ما تضرب به الأمثال فى تواريخ الأدب بين جميع الأقوام ، فنحن لا نرى فى تلك التواريخ أمثلة كثيرة لمروءة ذلك المحسن الأريحى السيد «مظهر الشاوى» الذى تكفل بالشاعر فى شيخوخته ومحنته فأجرى عليه أربعين ديناراً مشاهرة مدى حياته ، ولا نرى فى تلك التواريخ وفاء كثيراً كالوفاء الذى ظهر من أهل بغداد فى تشييع الرصافى إلى مثواه . فكل ما أنكروه عليه أيام حياته من تمرد أو خروج على العرف والعقيدة لم يذكروه ساعة فارق الحياة ؛ بل ذكروا له الفضل وحده غير معتز بصولة الجاه أو حواشى المنصب والثراء ، فشيعوه الوفاً إلى مقره الأخير .

عباس محمود العقاد